الفصل السادس

« الفنون »

١ – قدم الفنون في حضارة وادي الرافدين :

درسنم في الفصول السابقة كيف وضعت في حضارة وادي الرافدين وفي الحضارات القديمة التي ازدهرت في الوطن العربي ولا سيما حضارة وادي النيل اسس العلوم والمعارف وانظمة الحكم والشرائع والقوانين المدونة ، واولى فنون جميلة في تاريخ الانسان ، يختلف فروعها المعروفة كالنحت والرسم و (التزويق (PAINTING) وفن العمارة والفنون الزخرفية ومن الحلي والمجوهرات . ومع ان انسان ما قبل التاريخ في اوربا مارس نوعا من التصوير والنقوش ورسم الحيوانات في الكهوف في النصف الثاني من العصر الحجري القديم . (قبل نحو ١٥/٠٠٠ - ١٢٠٠٠ عام) بيد ان مثل تلك الصور الكهفية (واشهرها في كهوف في فرنسا وأسبانيا) لم تكن بدافع التعبير الفني والاحساس الجمالي بل بدوافع سحرية حيث اعتقد انسان ذلك العصر انه تتم له السيطرة وسهولة صيد الحيوانات التي كان يصطادها لقوته بمجرد تمثيلها في جدران الكهوف ، بموجب العقائد السحرية الاساسية المبنية على تمثيل الشيء المراد التسلط عليه او حيازته(Sympathatic Magic) ومهما كان الحال ؛ فأنه حتى لو اعتبرنا تلك الرسوم الكهفية اعمالا فنية فأن ممارسة الفن في اوربة انقطعت من بعد تلك الفترة في النصف الثاني من العصر الحجري القديم ولم تظهر الا من بعد آلاف السنين في الحضارة الايجية واليونانية من بعد فنون حضارات الوطن العربي القديم ، وفي مقدمتها حضارة وادي الرافدين بعشرات القرون ولذلك ففي وسع المؤرخ ان يؤكد ان بداية وطلائع الفنون الجميلة عند الانسان كانت في حضارتي وادي الرافدين ووادي النيل من بعد نهاية العصر الحجري الحديث (في حدود ٦٥٠٠ ق.م) وعلى وجه التحديد في العصر الذي سميناه بالعصر الحجري المعدني

Scanned by CamScanner

Chalcolithic(راجع الفصل الثالث) ، حيث بـــدأ العراقيـون القدمـاء اولى مجالات للتعبيرات الفنية في فن تزويق الاواني الفخارية بالالوان والاشكال والاطرزة الفنية الجميلة ، حيث ظهر فن الفخار المزوق والملون في ذلك العصر وبلغ ذروته في الروعة في فخار عصر حلف الذي درستم عنه في الفصل الثالث ويستطيع الطالب ان يتأكد من ذلك بزيارته للمتحف العراقي لمشاهدة اروع فخار صنعه الانسان قبل الفخار اليوناني الذي اشتهر بجماله بعدة الاف السنين واستمر فن تزويق الفخـار وتلوينه في العصور التالية اولكنه انقطع عند نهاية العصر الشبيه بالكتابي اي في اواخـر العصر الحجري المعدني لأن العراقيين القدماء اتجهوا في تعبيراتهم الفنية الى ميادين اخرى مثل صنع الاواني المعدنية وصنع الحلي والمجوهرات ونحت التماثيل وفن العمارة .

وظهرت بدايات هذه الفنون في عصر مبكر في العصر الحجري المعدني ، فقد سبق ان نوهنا باكتشاف مجاميع من تماثيل الحجر الجميلة في تل الصوان من عصر سـامراء او قبله ويمكن عد هذه التماثيل اول ظهور لفن النحت في تاريخ جميـع الحضارات قبل نحو ٧٠٠٠ عام ، واستمر تطور فن النحت بكلا نوعيه البارز والمجسم في الاطـوار التالية من العصر الحجري المعدني ولاسيما منذ عصر الوركاء وسنذكر اشياء أخرى من هذا الفن في الاقسام الآتية من هذا الفصل . والى جانب فن النحت ظهرت طلائع فـن العمارة في حضارة وادي الرافدين في اولى البيوت البسيطة التي شيدها العراقيون القدماء من بعد نهاية العصر الحجري الحديث واحرز فن العمارة تقدما اكثر في بناء المعابد التي ظهرت اشكالها المتميزة منذ عصر العبيد (في حدود ٤٠٠٠ ق . م) ، وازدادت سعة واناقة في العصور التالية وظهرت اوائل ما يسمى بالابراج المدرجة (الزقورات . ج زقورة) التي اختصت بها حضارة وادي الرافدين في نهاية عصر العبيد ومنتصف عصر الوركاء . وكان المعبد في مقدمة العوامل التي عملت على تطور فن العمارة وفن النحت حيث اعتنى القوم باطرزة بنائها وتزيينها بقطع المنحوتات في الجدران وكانوا يودعون فيهـا تماثيل الالهة المنحوتة وتماثيل بعض الشخصيات البارزة كالملوك والامراء والكهنة . وظهر فن العمارة كذلك في اولى القصور التي شيدت في حضارة وادي الرافدين وبلغت ذروة الابداع الفني المعماري في العصور التالية ، واقدم نماذج ظهرت لها بدأت بالظهور

Scanned by CamScanner

منذ عصر السلالات الثاني (في حدود ٢٧٠٠ ق . م) . ومما تجدر ملاحظته في هذه المقدمة عن تطور الفنون في حضارة وادي الرافدين ومنها فن العمارة ان اقدم مادة للبناء استعملها المعمار القديم كانت اللبن (الآجر المجفف) ثم ظهرت صناعة الآجر (اللبن المشوي) بالاضافة الى الحجارة التي استعملت في المعابد والقصور . واشتهرت حضارة وادي الرافدين في عصورها المتأخرة ، كما في العصر الآشوري الحديث (٩٠٠ - ٦١٢ ق . م) والعصر البابلي الحديث (القرن السادس ق . م) بصناعة انواع جميلة من الآجر المزجج او القاشاني (Glazed tiles) كما يتجلى ذلك في كثير من القصور الملكية الآشورية وفي باب عشتار الشهيرة من عهد الملك البابلي نبوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق . م) ، وستدرسون عن ذلك اشياء اخرى فيما بعد . ومما تجدر ملاحظته عن مادة البناء في فن العمارة هي انه مع ظهور هذه الانواع الجميلة من الآجر فان اللبن ظل مادة البناء الاساسية في تشييد المعابد في حضارة وادي الرافدين في جميع ادوارها ، ومما لا شك فيه ان هذا كان بدافع المحافظة على المآثر القديمة لأن اولى المعابد التي ظهرت في حضارة وادي الرافدين كانت من اللبن كما ذكرنا . والجدير بالتنويه في استعمال آجر اللبن في تشييد الدور والمعابد انه يمكن ارجاع اسباب ذلك ليس الى ندرة الاحجار الصالحة للبناء او الاخر بل الى ان مناخ العراق بوجه عام ولا سيما في الاقسام الوسطى والجنوبية قد تحكم في اختيار القوم لمادة اللبن ، وكان اختيار موفقا لما هو معروف عن اللبن بانه احسن مواد بنائية عازلة للحرارة والبرودة ناهيك عن رخص صنعه وسهولته ، وان الابنية المشيدة باللبن سواء كانت معابد او قصورا او بيوت سكن لم تنقصها الناحية الجمالية ، فأن القوم كان يملطون جدران الابنية المشيدة باللبن بخليط من ملاط الطين المصقول ، كما انهم كانوا يزينون الجدران بالزخارف المعمارية كالنقوش الملونة وقطع المنحوتات . ومما لا شك فيه ان سكان العراق القدامى لم يكونوا ليقاسوا وطأة الحرارة مما نقاسيه الآن في أبنيتنا الحديثة التي لم تراع في موادها واساليب بنائها احوال المناخ الخاص بالعراق .

وسنوجز فيما يلي تطور فن العمارة والنحت والفنون الاخرى بحسب العصور التاريخية القديمة ، ويجب على الطالب في دراسته لهذا العرض ان يستعيد ما درسه

Scanned by CamScanner

في الفصلين الثالث والرابع حيث سيكون بعض ما سنذكره تكرارا لما نوهنا به عن الفن في كل من العصر الحجري المعدني وعصر السلالات .

٢ – عرض عام للفنون بحسب العصور التاريخية : –

آ – فن عمارة المعابـــــد :

مر بكم في مقدمة هذا الفصل وفي الفصلين الثالث والرابع من القسم الاول من هذا الكتاب تتبع ظهور اولى الابنية العامة ممثلة بالمعابد التي ظهرت في عصر العبيد (٤٠٠٠ ق ، م) حيث نوهنا بسلسلة المعابد التي اكتشفت في اريدو (ابو شهرين) من ذلك العصر ، وتطرقنا الى اهمية ظهور المعبد في ذلك العصر المبكر في حضارة وادي الرافدين واثرها في تطور فن العمارة بوجه خاص وفي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية كما انه كان من العوامل التي حفزت القوم على ابتداع فنون اخرى ومنها فن النحت . وظهرت في اواخر العصر الشبيه بالكتابي منذ دور الوركاء الرابع اولى المعابد العالية التي عرفت باسم الزقورة او البرج المدرج الذي صار من سمات حضارة وادي الرافدين المميزة وقد كان لكل مدينة كبيرة تقريبا في العصور التاريخية التالية برج مدرج بجوار المعابد الارضية . وقد بدأت هذه المعابد العالية في اواخر عصر الوركاء ببناء المعبد فوق مصطبتين او اكثر يشيد فوق العليا منها المعبد ويرقى اليه بسلالم . وقد عثر على نماذج من هذه المعابد العالية في الوركاء ، وعثر على نموذج جميل في تل العقير (الواقع على بعد نحو ٥٠ ميلا جنوب بغداد) شيد فوق مصطبتين ، وزينت جدران المعبد المشيد فوقهما برسوم ملونة تمثل بعض الحيوانات مثل الاسود والفهود وتعد هذه الرسوم اقدم نماذج للرسوم الجدارية (Frescoes) في تاريخ الفن ، وقد مارس الفنانون أسلوب تزويق الجدران في العصور التالية مثل العصر الكاشي والآشوري ، ولكن اضيف الى هذا الاسلوب من التجميل تزيين الجدران بالمنحوتات الحجرية واستعمال الآجر المزجج (القاشاني) والامثلة على ذلك قصر سرجون الآشوري في خرسباد وباب عشتار الشهيرة في بابـــل كما زينت جدران بعض المعابد في عصر السلالات بالمنحوتات الجميلة حيث عثر على قطع حجرية مربعة منحوتة بالنحت البارز وتمثل مشاهد طريفة كالمصـــارعة

Scanned by CamScanner

والملاكمة والولائم . وبالاضافة الى استعمال النحت في تزيين المعابد والقصور ظهر منذ عصر الوركاء فن زخرفي جميل لتزيين جدران المعابد بصفوف من المخاريط والمسامير الطينية المفخورة وهي ملونة الرؤوس بألوان مختلفة وبأشكال هندسية جميلة ، والامثلة على ذلك ما عثر عليه في معابد الوركاء والعقير من عصر الوركاء ، ويعد هذا الاسلوب من الزخرفة المعمارية اقدم نماذج لفن الفسيفساء **Mosaic** في تاريخ الفن . وقد وجد في بعض المعابد في الوركاء (من عصر الوركاء ايضا) بقايا أنصاف اعمدة في واجهات المعابد معظمها من آجر اللبن وهي مغلفة بهذا النوع من الفسيفساء . ومن الاختراعات المهمة في فن العمارة ظهور الاقواس او العقود وقد عثر على بعضها في اريدو (من عصر الوركاء) ، كما ظهرت العقادة وفن تشييد القباب كما مر بنا من العثور على نماذج منها في مقبرة اور الملكية من عصر السلالات الثالث . وان ظهور فن العقادة والقبة في هذا العصر المبكر من حضارة وادي الرافدين ذو اهمية كبيرة في معرفتنا بتاريخ مثل هذه العناصر المعمارية التي كان المؤرخون يرجعون اصلها الى الفن الروماني .

وما دمنا في معرض الكلام على فن عمارة المعابد فيجدر التنويه بأن المعابد تطورت في العصور التاريخية التالية من حيث ازدياد سعتها وتعدد مرافقها وزخارفها وقد اصبح البعض منها اقرب ما يكون الى المدينة الكبيرة واشتهرت المدن الكبرى في بلاد بابل وآشور بنماذج كثيرة منها . وبالاضامة الى المعبد الرئيسي في المدينة كانوا يشيدون عدة معابد للالهة الاخرى ، ويتجلى فن العمارة في اتقان بنائها وخططها ، وقد مر بنا ذكر بعضها من عصر السلالات مما عثر عليه في منطقة ديالى ونفر والوركاء . وبلغت ضخامة المعبد اوجها في مدينة بابل في عهودها الاخيرة (العصر البابلي الحديث) كما يتجلى ذلك في معبد المدينة الرئيسي المسمى « اي ـ ساكلا **E-Sagila** (ويعني البيت الشامخ او المرفوع الرأس) الذي كان بمثابة المدينة حيث الساحات المتعددة والحجرات الكثيرة . وبالاضافة الى الحجرة المقدسة **Cella** المخصصة لاله المدينة مردوخ خصصوا عدة حجرات لعبادة الآلهة الاخرى ، وقد روى المؤرخون المتأخرون وفي مقدمتهم هيرودتس (القرن الخامس ق.م) عن ضخامة هذا المعبد وروعته وان تماثيل ذهبية تمثل الاله مردوخ اودعت فيه .

Scanned by CamScanner